وخمس مئة، ثم بدأت في النقض، ومات فيها سنجرشاه، وحاصر محمد شاه بغداد، وهو آخر مَنْ حاصرها، ومات محمد سنة أربع وخمسين وخمس مئة.

وقام بعده أخوه سليمان شاه، وخالفه أخوه ملك شاه، وتوفي أرسلان شاه بن طغريل بن ملك شاه سنة سبعين وخمس مئة.

وقام بعده ولده طغريل شاه وأتابكه محمد البهلوان، وقتل في هذه السنة، وهي سنة تسعين وخمس مئة، [فكان آخر ملوكهم][1].

السَّنة الحادية والتسعون وخمس مئة

فيها ملك ابنُ القَصَّاب وزير الخليفة بلاد خوزستان: ششتر وأعمالها، ويقال: إنها تشتمل على أربعين قلعة، وقيل: بل ملكها في السنة الماضية، ودخل الأمير علي بن شملة وسوسان بغداد في صفر، وأخليت لهم الدور، وباتوا وأولادهم ببغداد.

وفيها أقطع العزيز فارس الدين ميمون القصري نابُلُس، فأقام في سبع مئة فارس في مقابلة الفرنج.

وفيها كانت وقعة الزلاقة[2] بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طُلَيْطُلة، وكان [الفنش][1] قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولاتها، [وكان][1] يعقوب مشغولاً عن نُصْرتهم بالخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زقاق سبتة، وعرضه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقَّة عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، فكتب [الفنش][1] إلى يعقوب كتاباً ينخيه: باسمك اللهم الكريم، فاطر السموات والأرض، وصلى الله على سيدنا المسيح عيسى ابن مريم الفصيح.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) كذا قال، وهو وهم أو سبق قلم، والصحيح أنها وقعة الأرك، أما الزلاقة فهي وقعة أخرى كانت سنة (٤٧٩هـ)، وبطلها يوسف بن تاشفين. انظر عن معركة الأرك: المعجب ٤٠٤ـ٤٠٦، وعن معركة الزلاقة: المعجب ١٩٥ـ١٩٩.

أما بعد، أيها الملك، فإنَّه لا يخفى على ذي عَقْل لازب، وذكاء ثاقبٍ أَنَّك أمير المِلَّة الحنيفية، كما [أنا][1] أمير المِلَّة النَّصْرانية، وغيرُ خافٍ عنك ما عليه نوَّابك بالأندلس من التخاذل والتقاعد والتكاسل، وإهمال أمور الرَّعية، والاشتمال على اللَّذَّات الدَّنية، ولما أظهروا العِصْيان، وادَّرعوا الخِذْلان سَلَّطني الله عليهم، فأذقتُهم الخَسْف، وسُمْتُهم العُنْف، أُخلي منهم الدِّيار، وأمحو الآثار، وأسبي الذَّراري والولدان، وأمثِّل بالكهول والشُّبَّان، وقد جعلتُ ألوفاً من العذارى المُسْلمات مملوكاتٍ لبنات الإفرنجيات، ولا عُذْرَ لك في التخلف عن نُصْرتهم وقد مكَّنتك بهم القُدْرة، وأنت قادرٌ على النُّصْرة، مع أنكم تعتقدون أَنَّ الله فَرَضَ عليكم في كتابكم قتال [عشرة][1] منا بواحدٍ منكم، وقد زاغ عنكم الصَّواب، وكذبتم بالكتاب، و﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦] ونحن الآن يقتل واحدٌ منا عدداً منكم، فقد أظفرنا الله بكم، وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً، ثم بلغني أَنَّك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وجمعتَ جَمْعاً من البربر والعرب الذين ادَّرعوا العار، وعبدوا الدِّرْهم والدِّينار، وأحلُّوا الحرام، وباينوا دين الإسلام، وتمطل عاماً بعد عام تنتظر حوادث الزمان، وتقلب الحَدَثان، تقدم رِجْلاً وتؤخر أُخرى، وهذا الفعل بمثلك أحرى، فلا أدري الحَيْن أبطأ بك فَضَلَلْتَ في غَيِّك، أم التكذيب بما أنزل على نبيك؟ فإنْ كنتَ عاجزاً عن العبور إلي خوفاً من أهوال الزّقاق، فأنا أذكر لك ما فيه الرِّفْق بك والارتفاق، وهو أَنْ تعاهدني بالأَيْمان المغلَّظة، والأقسام المعظَّمة ودَفْع الرَّهائن، وتوجّه إلي جُمْلةً من المراكب لأعبر إليك، وأبارزك في أعزِّ الأماكن عليك، فإنْ كانت الدائرة لك كانت غنيمة ساقها الله إليك، وإن كانت يدي العُلْيا، استحققت إمارة المِلَّتين، والتقدُّم على الفئتين، والله تعالى يوفق للسَّعادة، ويسهل الإرادة، فإنه لا رَبّ غيره، ولا خير إلا خيره، والسَّلام.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فلما قرأ يعقوب الكتاب استشاط غضباً، وأدركته حَمِيَّة الإسلام، والغيرة على الإيمان، فكتب على رأس الكتاب بخطِّه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

وكتب تحت الآية: [من الطويل]

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفية عندنا ولا رُسْلَ إلا بالخميس العَرَمْرَمِ

ثم قام من ساعته، فشدَّ ذنب فرسه بيده، ولبس سلاحه، وسار إلى زقاق سبتة، فنزل عليه، وجمع الشَّواني والمراكب، وعَرَضَ جُنْده، فكانوا مئتي ألف مقاتل، مئة ألف يأكلون الدِّيوان، ومئة ألف مطاوعة، وعبر الزقاق إلى مكانٍ يقال له: الزلاقة[1]، وجاءه الفنش في مئتي ألف وأربعين ألفاً من أعيان الفرنج والمقاتلة، والتقوا، فجرى بينهم قتالٌ لم يجر في جاهليةٍ ولا إسلام، ثم أنزل الله نَصْره على المُسْلمين، فولى الفنش هارباً في نفرٍ يسير إلى طُلَيْطُلة، وغَنِمَ المُسْلمون ما كان في عسكره، وكان عِدَّةُ من قُتِل من الفرنج مئةَ ألف وستة وأربعين ألفاً، وعِدَّة الأسارى ثلاثون ألفاً، ومن الخيام مئة ألف خيمة وخمسون ألفاً، ومن الخيل ثمانون ألفاً، ومن البغال مئة ألف، ومن الحمير أربع مئة ألف حمار يحمل أثقالهم، لأنَّهم لا جمال عندهم، ومن الأموال والجواهر والثِّياب ما لا يُحدّ ولا يحصى، وبِيْعَ الأسير بدِرْهم، والسَّيف بنصف دِرْهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائمَ بين المُسْلمين على مقتضى الشريعة، فاستغنوا إلى الأبد.

ووصل الفنش طليطلة على أقبح حال، فَحَلَق رأسه ولحيته، ونكَّس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النِّساء، ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر، وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعدّ، وقيل: كانت هذه الوقعة سنة تسعين.

وحج بالنَّاس من بغداد سنجر النَّاصري، ومن الشَّام سراسُنْقُر وأيبك فطيس الصَّلاحيان، [ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفري؛ من ولد جعفر بن أبي طالب][2].

---

(١) انظر حاشيتنا رقم٢ ص٤٠ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

[وفيها توفي

عبد الله بن محمد بن عبد الله الصوفي[١]

أبو القاسم، شيخ رباط المأمونية ببغداد، وكان زاهداً عابداً، متورعاً، حسن العقيدة][٢].

السنة الثانية والتسعون وخمس مئة

فيها بعد خروج الحاج من مكَّة هبَّت ريحٌ سوداء عمَّتِ الدُّنيا، ووقع على الناس رملٌ أحمر، ووقع [من][٢] الركن اليماني قطعةٌ، وتحرَّك البيت الحرام مراراً، وهذا شيءٌ لم يعهد منذ بناه ابن الزُّبير رضي الله عنهما، وأعاده الحَجَّاج، وإلى هلمَّ جرا.

وفيها كانت الوقعة بين ميالجق مملوك خوارَزْم وبين ابن القَصَّاب وزير الخليفة على باب هَمَذَان، كان ابن القصَّاب لما استولى على خوزستان طَمِعَ في البلاد، فتقدَّم إلى هَمَذَان، ثم سار إلى أصبهان، فولى عليها عماد الدين طغريل صاحب البصرة مملوك الخليفة، وبلغ خوارزم شاه، فبعث إليهم يقول: هذه البلاد فتحتها بسيفي وقتلت عدوَّكم، فارجعوا وإلا فأنتم خبر، فجمع الوزير الأمراء واستشارهم، فقالوا: الرأي ما ترى، فقال: ما بعد الرِّبْح إلا الخسارة، وقد فتحنا خوزستان، والمَصْلحة رجوعنا. فلم يوافقه طغريل صاحب البصرة، وطغتكوا صاحب اللِّحْف، وكان خوارزم شاه قد قطع جيحون في خمسين ألفاً، وقدَّم بين يديه مملوكه ميالجق في خمسة آلاف، وعسكر الخليفة بأصبهان، وكان بها شحنة أسود من قبل خوارزم شاه ورئيسها الصَّدْر بن الخُجَنْدي، وكان عظيماً من بيت الرياسة، فاتهمهما طغريل بمكاتبة الخوارزمي، فاستدعاهما إليه، وذبحهما بين يديه، وقيل: إنما قتلهما سُنْقُر الطَّويل، وهو كان شحنة أصبهان، ثم رحلوا إلى هَمَذَان، فنزلوا على بابها، ومَرِضَ الوزير من أصبهان إلى

(١) لم أجد له ترجمة فيما لدي من مصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).